المحاضرة الثالثة : أركان عملية التعلّم

تنهض عملية التعلّم على مجموعة من الأركان الضرورية التي لا يمكن الاستغناء عنها. وهي أركان متكاملة يتماشى بعضها مع بعض. وهي : النضج ، الاستعداد، الفهم، والتكرار.

1. النضج :

ويقصد بالنضج اكتمال القدرات النفسية والعقلية والجسدية للمتعلّم، والتي تؤهّله لاكتساب المهارات المناسبة لتطوّره العمري. وإذا كان الإنسان يتقدم في العمر منذ الولادة إلى أكثر من 100 سنة، فإن هذا التطوّر العمري لا يكون متماثلا من جهة النضج العقلي والنفسي والجسماني.

ونحن نعرف من خلال الملاحظة المستمرّة أن الأعوام الأولى من حياة الإنسان ذات أهمية كبيرة، لما هنالك من تغيّرات شديدة تحدث للإنسان، سواء من جهة نموّه البدني، أو العقلي، أو النفسي.

ونقصد بالنمو البدني تلك التغيّرات التي تحدث في جسد المتعلم يوما بعد يوم، وتسمح له ببمارسة عملية التعلم بحسب ما يناسب هذه التغيّرات. وتشمل هذه التغيرات على وجه الخصوص نمو العضلات، والعظام، والخلايا العصبية. وكل هذا يدخل في الاعتبار عند ممارسة التعلّم.

وهكذا، وعلى سبيل المثال، لا يمكن للطفل أن يتعلم الكتابة إلا في سنّ معينة، هي في العادة بعد 6 سنوات. وذلك أن الكتابة، فضلا عن أنها نشاط عقلي، هي نشاط عضلي، تحتاج العضلات فيه إلى المران والتدريب. ولا يمكن لهذا النشاط أن يكون ناجحا إلا إذا كان الطفل مؤهلا تأهيلا بدنيا لممارسة هذا النشاط. ومن هنا فإن النضج البدني ضروري لتعلم مهارة الكتابة. وبناء على ذلك فإن من الخطأ البيداغوجي أن يمارس الضغط عل المتعلم أن ليتعلّم الكتابة قبل 6 سنوات، بحجة ربح الوقت، وذلك لسبب بسيط هو أن المتعلم غير مؤهلا بدنيا ولا عقليا.

ونفس الشيء يقال عن النضج العقلي أو النفسي، فإنّ أي تعلّم ناجح يقتضي بالضرورة تأهيلا عقليا مناسبا للمهارة المراد اكتسابها، وإلا فإن كثيرا من المفاهيم والأفكار والتصوّرات لا يمكن استيعابها إذا لم يكن لها النضج العقلي المناسب لها.

2. الاستعداد

ونقصد بالاستعداد وعي المتعلم بأنه في وضعية تعلّمية تتطلب منه الانتباه والتركيز، ما يسمح له باستيعاب ما يُلقى إليه معلومات أو شرح كيفيات، أو غيرها. وبناء على ذلك فإن التعلّم الناجح يتطلب استعدادا مناسبا من المتعلم لاكتساب التعلّمات الجديدة. وعلى كل حال فمهما تكن كفاءة المعلّم في الشرح والتفهيم، فلا فائدة من شرحه هذا إذا لم يقابل باستعداد حقيقي من المتعلم لاكتساب المعارف الجديدة.

وبناء على ذلك فالمعلّم الناجح هو من ينتبه لاستعداد أو عدم استعداد متعلّميه لممارسة العملية البيداغوجية. وبهذا الاعتبار فإن الحديث الجانبي مع الزملاء أثناء الشرح، أو الشرود الذهني للمتعلم، أو اللهو بالأدوات المدرسية، وغيرها هي كلّها عوامل تفشل العملية التعليمية من الأساس. وتستنزف الكثير من الجهد والطاقة في الإعادة والشرح وتكرار المعلومات.

وعلى كل حال فإنّ هناك بعض العوامل الأخرى التي تشتت الانتباه وتؤثر على عامل الاستعداد، مثل الحرارة الشديدة أو البرودة الشديدة أو الضوضاء في القسم أو بجانب القسم أو الإضاءة غير المناسبة. فهذه كلها عوامل سلبية تؤثر على العملية. وهنا فمن المناسب، في حالة الحرارة الشديدة، أن يفتح المعلّم النوافذ، وفي حالة البرودة الشديدة أن يغلقها. وأن يعمل على إرساء الهدوء والنظام في القسم، وأن يلفت نظر الإدارة إلى الضوضاء الجارية خارج القسم، وتصحيح عامل الإضاءة وغيرها.

إن تصحيح مثل هذه العوامل يعتبر مفتاحا أساسيا يسمح للمتعلم بالاستعداد المناسب لعملية التعلّم. وإلا فإن العملية برمتها تبقى تراوح مكانها.

3. الفهم

وهذا هو أهمّ ركن في أركان العملية التعليمية. فالفهم هو المفتاح الأساسي الذي تبنى عليه العملية التعليمية برمّتها. ومن حيث المبدأ، فإن الفهم ينهض على إدراك العلاقات القائمة بين الأشياء التي تبدو متباعدة ولا علاقات بينها. إن إدراك العلاقات التي تربط بين الأشياء هي الميزة التي يتميز بها الإنسان من دون سائر الكائنات الحيّة الأخرى. ومن أمثلة ذلك إدارك العلاقة بين العلّة والمعلول. أو الانسجام والاختلاف، أو إدراك النظام في ظاهرة من الظواهر ،سواء أكانت علمية بحتة كما في الأنظمة البيولوجية والفيزيائة والرياضية، أو كانت في مجال العلوم الإنسانية، التي تدخلها النسبية إلى حدّ ما.

وهكذا ففي علم النحو مثلا، تنهض المهارة في الإعراب على القاعدة الصلبة الآتية : <u>الإعراب إدراك العلاقات التي تنشأ بين الكلمات حين تتركب في جملة</u>. ومن دون هذا الإدراك تعود العملية برمّتها إما حفظا لبعض التعابير التي يرددها الطالب من غير فهم، أو مجرد لعب احتمالي، أي إن لم يكن هذا الجواب صحيحا فذاك، وهكذا.

إن من أساسيات الفهم الصحيح للجملة العربية، بل في كل اللغات، أن لا يكون مبتدأ من دون خبر، ولا خبر من دون مبتدأ، وأن الجملة الفعلية التي تضم فعلا وفاعلا ومفعولا به على سبيل المثال هي جملة مبنية على مجموعة من العلاقات التي تربط بين هذه الأركان الثلاثة، فلا يمكن أن يكون هناك فعل من غير فاعل ظاهر أو مقدر، ولا يمكن أن نتصور مفعولا به من غير فعل وقع عليه، ولا من غير فاعل أوقع هذا الفعل، وهكذا.

إن إدراك هذه العلاقات هو الذي يسمح بتحليل الجملة العربية تحليلا صحيحا، وفهمها فهما مستقيما. فالفهم هو لبّ العملية التعليمية، في كل المجالات.

4. التكرار

وهو ركن أساس من أركان العملية التعليمية. وتنهض فكرة التكرار على فكرة استدراك الخلل الممكن في المحاولات السابقة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن القدرات الذهنية للمتعلمين تختلف من أحدهم إلى الآخر، فإن قدراتهم الاستيعابية تختلف كذلك. ومن هنا وجب تكرار إلقاء المعلومات، وإعادة شرح الأفكار والتصوّرات ليلحق من لم يفهم بمن فهم، ويستذكر من نسي، ويتعمق في الفهم من فهم سابقا.

إن التكرار هو في الحقيقة تدريب للجهاز العصبي على استحضار المعلومات وتوظيفها توظيفا صحيحا وقت الحاجة. ولمّا كانت آفة الإنسان هي النسيان، فإن التكرار هو السلاح الفعال الذي يتم به محاربة هذه الظاهرة بشكل جدّي وفعّال.